الفصل الأول

حياة نسيب عريضة

حياة نسيب عريضة

« وُلد نسيب عريضة فى مدينة « حمص » فى شمال سوريا عام ١٨٨٧ ، وكان أبواه مسيحيين أرثوذكسيين هما : أسعد عريضة وسليمة حداد . وأنجب الوالدان بعده ولدين آخرين هما : سابا ونقولا ، وابنتين هما : شمسة ومهجة . وكان الأب يمتلك مصنعاً للنسيج فيه عدة أنوال ويشاركه فيه إخوته .

تلقّى نسيب تعليمه الابتدائى فى مدرسة حمص الروسية المجانية ، وحين ظهر تفوقه اختارته الجمعية الروسية الإمبراطورية ليكمل تعليمه الثانوى فى مدرسة المعلمين الروسية فى مدينة الناصرة فى « فلسطين» . وكان خريجو هذه المدرسة يملأون مراكز مديرى المدارس الروسية المنتشرة فى أنحاء فلسطين وسوريا ولبنان .

ومنذ عام ١٩٠٠ عاش نسيب فى القسم الداخلى لمدرسة الناصرة حيث التقى ، بعد عامين ، بتلميذ جديد سيصبح فيما بعد صديقاً عزيزاً ورفيقاً مخلصاً له مدى حياته هو ميخائيل نعيمة الذى أصبح فيما بعد زميلا له فى الرابطة ويعد من المصادر الحيّة عن حياة نسيب ، والتقى نسيب بزميل آخر فى مدرسة الناصرة ، ذلك هو عبد المسيح حداد الذى أصبح عضواً فى الرابطة القلمية ، وأصبحت شقيقته « نجيبة » زوجة لنسيب عريضة .

وفى مدرسة الناصرة أثبت نسيب تفوقه وعُرف بسلوكه الطيب وأخلاقه القويمة ، يصفه نعيمة بكونه متواضعاً ، لطيفاً وخجولا « دائما يتحاشى النزاع والخصومات المدرسية ، ذو لسان طاهر دافئ ، لا يتكلم الشر أبداً . وهذه الصفات بقيت ملازمة له طول حياته ، وكان محبوباً ومحترماً من قبل أساتذته ورفقائه »[1].

---

(١) ميخائيل نعيمة فى مجلة « القلم الجديد » عمان ، أغسطس ١٩٥٣ .

وفى نهاية عام ١٩٠٤ اختير نسيب ليكمل تعليمه فى روسيا ، ولكن الحرب اليابانية الروسية حالت دون سفره ، فعاد إلى مدرسة الناصرة حيث أنهى تعليمه فيها ، وتوجّه منها شطر العالم الجديد . والظاهر أن بعض أبناء عمومته كانوا قد سبقوه إلى هناك ولحق هو بهم ، وساعد على ذلك ميول والده التجارية ، مما عجّل رحيله من بلاده التى لم يُقدّر له العودة إليها أبداً .

ومنذ طفولته عُرف نسيب عريضة كشخص لطيف خجول ، وحسّاس للغاية . كان يعانى من الشعور بالحيرة فى أعماق الروح ،[1] مما جعله يلجأ إلى الطبيعة ويتجول ما بين المزرعة الجديدة ، والمياس والدوير ، وهى متنزهات معروفة فى حمص ، ولكنّ مشاعره الحزينة كانت تقوده أحياناً إلى التوغّل نحو الأطلال القديمة والخرائب المنتشرة خارج المدينة .

ويصف نعيمة زميله نسيب فى طفولته فيذكر أنه كان شغوفاً بقراءة الكتب العربية من شعر ونثر . وبدأ كتابة الشعر وهو فى الخامسة عشرة ، وكانت أولى أبياته قصيدة موجهة إلى شجرة الأرز فى لبنان ، يهمس لها بما أوحاه له خياله الشاب أثناء التفكير ببراءة فى الحياة والزمن . سألها لماذا اختارت لنفسها هذا المكان البعيد فى أعالى الجبال ، هل من أجل شغفها بالمناظر الجميلة التى تمتد تحتها على منحدرات جبل لبنان ووديانه وسهوله ؟ ثم يعطى الجواب بنفسه قائلا : إنها لم تسكن هذا البعد المرتفع من أجل المناظر الجميلة ، ولا تزهداً ، ولا تكبراً ، ولكنها اختارت هذا المكان من أجل حبها للحرية وإحساسها بأن لبنان قد فقد هذه النعمة الثمينة .

وليس غريباً بعد مارأينا من إلهام الصبى وغرامه بالقراءة والتأمل فى الطبيعة والحياة ، أن نجد نعيمة يقول عن شخصيته وشعره فيما بعد : « هذا شاعر له شخصية لا تندغم فى شخصية أحد من الشعراء . وشعره ذو مدى شاسع ، ولشاعريته وجه يميزها عن كل شاعرية ما عداها ، ولألحانه رنة تعرف بها بين

---

(١) ميخائيل نعيمه فى مجلة « القلم الجديد » عمان ، أغسطس ١٩٥٣ .

سائر الألحان . وفى كل ما ينظمه نكهة تختلف عن كل نكهة »(١)

استمع إليه يتحدث إلى نفسه :

سيّان أن تصغى للنصح أو تغضى
يا نفس فالآتى مثل الذى يمضى

العيش إذ يشقى كالعيش إذ يُضنى
إن الذى يُحيى بعض الذى يُفنى

الطهر لا يُدنى والعُهر لا يُقصى
فالكأس إن تطفح كالكأس فى النقْص

الجوهر السامى يبقى بلا رجسِ
كم مومس تمضى عذراء للرمسِ

فافعل كما تهوى ياقلب لا تحذرْ
إن كنت من تبرٍ ماضرّك المَصْهر

بدت الحياة صعبة جداً أمام الصبى ذى السبعة عشر ربيعاً المملوء بالطموح والتطلع ، عندما وضع قدميه لأول مرة على شاطئ تلك المدينة الكبيرة المزدحمة — مدينة نيويورك .

كان فقيراً ومحتاجاً ، وقد جاء إلى العالم الجديد ليهيئ لنفسه حياة ناجحة مزهرة ، وكان عليه أن يعمل ، ويجدّ ويعرق ليحقق ما جاء من أجله . اشتغل فى المتاجر والمصانع باذلا وقته بين ضجيج الآلات وزحمة البيع والشراء ؛ لقد كانت حياة مادية جداً بالنسبة لشاب وحيد حساس ، مملوء بالأهداف الشعرية والآراء الأدبية ، فلا عجب أن أصبح رجلاً مصدوماً خائب الحظ .

ولكى يجد منفذاً لآلامه وأحزانه ، اتجه إلى عالم الأدب ، كان يعمل فى المصانع أثناء النهار حتى يهيئ لنفسه ساعات هادئة فى المساء ، يكرّسها

(١) نعيمة : الغربال ط . دار المعارف ص ١٠٧ .

للقراءة والدراسة والبحث ، محاولا بذلك دخول عالم أكثر طهراً وسموّاً من عالم المادة . قال عنه نعيمة فيما بعد: « لم يعرف القسم العربى فى مكتبة نيويورك العمومية زائراً أكثر تردداً عليه من نسيب »(١) وبما أنه كان يعرف اللغة الروسية فقد تمكن بذلك من قراءة الأدب الروسى كذلك .

إن حب القراءة هذا والتعطش للعلم والمعرفة قد ساعدا نسيباً كثيراً فى السنوات التالية وأمدّاه بذخيرة يمكنه الاغتراف منها عندما يكتب شعراً أو نثراً، أو يترجم من الروسية أو الإنجليزية . وهذا جعل له قيمة كبيرة وشخصية محترمة بين أصدقائه وزملائه فيما بعد ، فلا عجب أن أطلقوا عليه جميعاً لقب « الموسوعة العربية »(٢) .

فى عام ١٩١٢ أسس نسيب عريضة مطبعة « الأتلنتيك » وفى العام التالى أصدر مجلته « الفنون » التى احتلت مكانة محترمة فى أمريكا والعالم العربى ، لفترة معينة .

وفى ذلك الوقت ، كان ميخائيل نعيمة ، صديق نسيب القديم فى الناصرة ، هو الآخر مهاجراً من الشرق ، يدرس الحقوق فى جامعة واشنطون حيث وصلها عام ١٩١١ . كتب نسيب إلى صديقه ميخائيل : « الفنون عنوان خلّق تطلعت إليه منذ زمن بعيد ، ولدىّ من الآمال ما يجعلنى أعتقد أنها ستظل قوية بعد الجهاد لفتح طريق جديد بين خرائب عالم الأدب العربى » .

ويكتب نعيمة فى الجزء الثانى من سيرته الذاتية « سبعون » « فى ربيع سنتى الثانية فى الجامعة ، والأولى فى كلية الحقوق ، حمل إلىّ البريد العدد الأول من مجلة عربية تصدر فى نيويورك باسم « الفنون » وكان التاريخ الذى عليه « نيسان ١٩١٣ » . أما منشئ المجلة فرفيق فى الناصرة نسيب عريضة . بشركة رجل آخر لا أعرفه »(٣) ويكمل نعيمة كلامه قائلا : « ما هذا الذى

---

(١) نعيمة : القلم الجديد ، عمان – أغسطس سنة ١٩٥٣ .

(٢) رسالة من عبد المسيح حداد ، أبريل ١٩٦١ .

(٣) كان هذا الشريك هو نظمى نسيم .

اعترانى عندما فتحت العدد ؟ إن عينى تسابق يدى فى تقليب صفحاته وتلتهم ما فيه التهاماً . وقلبى يصفّق فرحاً بين ضلوعى . فإلى الشيطان أيتها « العقود » و « الصكوك » و « الجنح » و « الجنايات » وكل ما يتصل بالمحاكم والأحكام . إنك سلسلة لا نهاية لها من المشكلات والعدل عنك غريب . إنك رغوة وفقاقيع صابون ! وههنا فتح جديد ودنيا جديدة . ههنا حروف تنبض حياة . والعجيب أنها حروف عربية . وعهدى بالحروف العربية أن عناكب الجمود والتقليد والنفاق والفاقة الفكرية والروحية قد نسجت فوقها أكفاناً ، وأن غبار خمسة قرون قد تكدّس على تلك الأكفان »[1].

وبعد تصفح المجلة ثم قراءة عدد من مقالاتها بإمعان صاح نعيمة فى سرور : «لا . لا . لست فى حلم يا ميشا . فهذه النفحات التى هبّت عليك من « فنون » رفيقك نسيب عريضة لم تنطلق من خيالك ومن رغبتك الملحاح فى أن تجدّد العربية شبابها . إنها لحقيقة راهنة . وإنها البشارة لك بالانبعاث ، الذى رحت تترجاه لبنى قومك منذ أن أطللت على الأدب الروسىّ والآداب العالمية وأدركت قدسية الكلمة ، وقوة القلم إذا هو لم يدنّس الكلمة بالكذب والرياء والتدجيل ، و لم يعبد الحرف دون الروح . بلى . بلى . هذا أول الغيث يا ميشا — قطرة ثم يهمى . وهذه القطرة تتحداك يا ميشا . فهل لديك قطرات تضيفها إليها ؟ إذا كنت تريد أن يكون لك نصيب فى الغيث الآن فهذه الساعة هى ساعتك . وهذا اليوم هو يومك »[2] .

ثم كتب نعيمة مقالة جديدة أسماها : « فجر الأمل بعد ليل اليأس » امتدح فيها مجلة « الفنون » وتنبأ لها بمستقبل زاهر .

صرف نسيب على « الفنون » كل ما معه من نقود ، وكل ماوصله من والده فى حمص . كان دقيقاً جداً فى اختيار أحسن أنواع الورق ، والطباعة الواضحة

---

(١) ميخائيل نعيمة : سبعون جـ ٢ ص ٢٨ .

(٢) ميخائيل نعيمة : سبعون جـ ٢ ص ٢٩ ، ٣٠ .

الجميلة ، والإخراج الرائع . وظهرت فى « الفنون » أسماء كتّاب من مثل : أمين الريحانى وجبران ونعيمة وغيرهم فى كل عدد من أعداد المجلة. واحتوت معظم الأعداد على ترجمات لأعمال بعض الكتاب والشعراء الغربيين والروس وكانت المجلة تزدان بالصور والرسومات الجميلة لفنانين ومصورين معروفين ؛ وقد ساهم جبران بقسم وافر من فنّه فى هذا المجال .

وعند وقوع الحرب العالمية الأولى وما خلّفته من آثار روحية واقتصادية ، أصابت « الفنون » ضربة قاسية وتوقفت عن الصدور ، خاصة أن كثيرين من المشتركين قد أجّلوا دفع اشتراكاتهم . وما كاد العدد العاشر من المجلة يرى النور حتى كتب نسيب إلى صديقه ميخائيل فى ١٥ مايو ١٩١٤ : « لقد خسرت معركتى وسقطت أمالى حولى قتلى » والآن وقد فرغ مالى وبخل علىّ المشتركون بما عليهم فليس لى إلا أن أقف ، وقد وقفت . ولا أدرى أتتحرك رجلاى فيما بعد أم تيبسان إلى الأبد .. » .

وقبل أن يختم نسيب رسالته الحزينة ، حاول جاهداً أن يرى لمحة من الأمل عبّر عنها لصديقه بقوله : « لا تقطع حبال آمالك . فقد أتمكن قبل شهر تموز من إعادة " الفنون" » .

وكتب نعيمة إلى صديقه نسيب يواسيه ويقدّم إليه مشاعره ومساعدته مؤكداً له أن المجلة لا بد ستعود إلى الظهور .

وبعد ثلاثة شهور طبع نسيب كتاب «دمعة وابتسامة» الذى حوى مقالات بقلم جبران ، رأى نعيمة الكتاب وكتب مقالة عنه ، طبعت فى صحيفة جديدة تصدر مرتين فى الأسبوع ، وصاحبها هو عبد المسيح حداد ، أما الجريدة فاسمها « السائح » وصدرت فى نيويورك .

لم يكن من السهل على نسيب أن يتخاذل أو ينهزم ونجد أن « أقدامه قد استطاعت الحركة » مرة أخرى ، واستطاع حبه لمجلته أن يبذل كل ما فى جهده ليعيد إليها الحياة ، ولكن كان عليه أن ينتظر حتى يونية ١٩١٦

حين تمكن من إظهار العدد الأول من المجلد الثانى من المجلة .

وفى خلال هاتين السنتين واجه نسيب عدداً من المشاعر المختلفة ، أهمها القلق والحيرة واليأس ، وفى هذه الأثناء كتب معظم مقطوعاته العاطفية التى تدور كلماتها حول الغربة والوحدة . وهنا بدأ يتأمل بعمق فى الأشياء والمخلوقات ومختلف وجوه الحياة ، ووجد نفسه دائماً سائلا : لماذا ؟

لماذا نحسّ ، لماذا نحبّ ، لماذا نعيش بلا طائلـــه ؟
لماذا التناسل ، والنسل ندرى بأن الحياة له قاتلـــه ؟
أكيما تزيـــد المقـــابر رمسا ونصغى إلى رنة الثاكلـــه ؟
لمـــاذا غلام يمـــوت وتبقى شيوخ تثقل فى العائله ؟

ثم يأتى إلى أهم بيت فى قصيدته عندما يتأمل أحوال فقره واحتياجه :

لماذا يفوت الأديب الغنى وتحظى به فئة جاهله ؟

وفى هذه الفترة نظر نسيب حوله باحثاً عن صديق حقيقى مخلص يمكن أن يشاركه دوماً سروره وحزنه . ومن الواضح أنه وجد حوله بعض من يشاركه ساعات سروره القليلة ، ولكنه وجد من الصعوبة بمكان أن يلقى حوله صديقاً يلازمه فى فترات يأسه وعذابه . فكان عليه أن يقنع بالتعبير عن أفكاره فى نهاية قصيدته القصيرة المسماة « الصديق » فيقول :

أعطنى فى الرخاء خلاً يقضّى زمن اللهو والمسرات عندى
وإذا ما مضى الرخاء فدعنى لقراع الخطوب فى العيش وحدى

وفى هذه الفترة أيضاً كتب نسيب قصيدته الحزينة الجميلة التى أسماها « دعنى وشأنى » وفيها يقول :

دعنى وشأنى ، وهل يعنيك من شأنى حديث هم ، وآلام وأشجان
ياصاحبى ، ياأخى مافيك لى أرب إلا مقالك « عم صبحاً » وتنسانى
أنت الخلىّ ، ولى حظ الشجىّ فلا يعديك منى شقاء العاثر العانى
فخل عنك ودع قلبى أعنفه فصدقه بين كذب الغير أشقانى

ويختم قصيدته المؤثرة بالبيتين التاليين :

لى عيشتان على درب الحياة إذا لاح الخيال ولى بالعمر عمران
رُحْ صاحبى ، رح أخى هيهات تفهنى دعنى وشأنى ، فما أدراك ماشانى ؟

وفى رسالة من نسيب إلى صديقه ميخائيل بتاريخ ١٣ أبريل ١٩١٥ نقرأ الأسطر التالية :

« أخى ميخائيل ،

لم أكن بالناسى ولا أستحق كلمات التوبيخ منك على قصورى فى المراسلة بل أرانى أحوج إلى كلمات المؤاساة والتشجيع ...

كنت ضعيفاً يا أخى كل مدة انقطاعى عن مكاتبتك ، ضعيفاً بالروح ومريضاً بالجسد ... وقد ظننت أن كل ما أطلبه فى هذه الحياة قد فرغت يدى منه ولا أمل برجوعه ...

أنا قوىّ الآن إلى درجة أنى أتمكّن من أن أعانقك روحيًّا وأنبئك أن آمالى بجملتها نهضت من قبرها ... وإنى وإن كنت فى الحقيقة لا أزال بلا مركز ولا بارة ولا مساعد ولكنى قوى إلى درجة تحملنى على التأكيد أن مشروعى الأدبى « الفنون » سيحيا عما قريب »[١] .

ولكن ، بعد سبعة شهور تسلّم ميخائيل من صديقه نسيب رسالة مختلفة جدًّا ، يصف فيها نفسه بأنه حطام لم يستطع الزمن أن يصلحه :

« ... فإنى أشعر أنى مركب قد تكسر على صخور اليأس والخيال المضلل وأرانى أود الإفصاح عن أكثر من ذلك . ولكنى عاجز فقد أفقدنى الدهر فصاحتى . وأشعر أنى بحاجة قصوى إلى صديق مثلك يعالجنى المرة بعد الأخرى ولو بكلمة واحدة مشجعة »[٢] .

ومع هذا كان على نسيب أن يعمل شيئاً ليشغل وقته ويكسب قوته

---

(١) ميخائيل نعيمه : سبعون جـ ٢ ص ٥١ .
(٢) ميخائيل نعيمه : سبعون جـ ٢ ص ٥٣ .

كذلك ، فاستمر فى الكتابة فى « السائح » الجريدة العربية الأدبية التى يملكها عبد المسيح حداد ، وأصبح سعيداً بعمله خاصة أن عبد المسيح كان صديقاً له منذ أيام مدرسة الناصرة .

ومما زاد فى سعادته أنه أصبح عضواً فى الجمعية شبه السياسية الجديدة المسماة « سوريا الحرة » التى كان من أعضائها نعيمه وجبران . وقد علق نسيب آمالا عريضة على هذه الجمعية التى وصفها بقوله : « شعاع من الأمل فى ليل اليأس » . ولكن أمل نسيب لم يعش طويلا لسوء الحظ ، فسرعان ما استاء من بعض أعضاء الجمعية . وعلى كل الأحوال لم يكن هو من النوع الذى يمكنه أن يندمج اندماجاً كلياً فى الأمور السياسية ، لقد اكتشف أن هؤلاء الأعضاء فقراء فى المال وفى المواهب كذلك ، فلم يكن عليه سوى أن يلتفت إلى حلمه العزيز وأمله الوحيد وهو عودة « الفنون » إلى الحياة .

وبعد كفاح طويل ، وقليل من الدعاية وبعض المساعدة من الأصدقاء الطيبين القليلين حوله ، تمكن نسيب من العمل فى العدد الأول من المجلد الثانى من « الفنون » . كتب لنعيمة فى أبريل ١٩١٦ :

« . . . الآن شعرت بتغيير عظيم فى حياتى وصرت أحيا وأحب الحياة . وقد نفضت غبار خمولى وسآمتى . فساعدنى الآن يا أخى بما تستطيع ، واعلم بأنك تبنى معى ولست أنا البانى وحدى ، فلنتعاون لعلنا نبنى شيئاً جديداً فى تاريخ الآداب . ولعل صوتنا هذه المرة لا يخفت كالمرة السابقة .. »[١]

عندما تسلم نعيمة العدد الأول من الفنون فى شهر يونية كتب إلى نسيب رأيه ونقده للعدد مع الكثير من التشجيع . وبعد عدة أشهر جاء إلى نيويورك واشتغل بجانب صديقه فى نفس المكتب وبذر معه البذور الأولى لتلك الجمعية الأدبية التى أصبحت مشهورة فى السنوات التالية باسم « الرابطة القلمية » . وفكرة هذه الرابطة كانت قد خطرت لنعيمه منذ فترة بعيدة ، وقد عبر عنها

---

(١) نعيمه : سبعون جـ ٢ ص ٥٨ .

فى رسالة إلى نسيب أوائل مارس سنة ١٩١٦ . وذكر نعيمة فى جوابه الشروط والأهداف لتلك الجمعية[١] .

وبالرجوع إلى الأعداد التى صدرت من الفنون منذ يوليو ١٩١٦ ، يمكننا أن نشاهد بأنفسنا كلمات التشجيع والمدح التى أرسلت لنسيب من عدد من الشبان والأدباء، ليس فقط فى الولايات المتحدة ، وأمريكا الجنوبية ،والمكسيك بل أيضاً من البلدان العربية : مصر ولبنان وسوريا وفلسطين والعراق وغيرها . مما ملأ قلب نسيب بالفرح وبعث فيه الأمل، فأخذ يجاهد ويبذل كل ما يمكنه من جهد ليصدر عدداً فى أول كل شهر ، فيصبح العدد حديث الناس ويكتبون إليه مشجعين. وفى تلك الأعداد نجد المقالات المترجمة—ومعظمها من عمل نسيب نفسه— قد قلت ، والمقالات المنشأة فى ازدياد ، وهذا معناه أن أقلاماً جديدة قد بدأت تشارك فى الجهد .

لم يكن من السهل على نسيب أن يحافظ على حياة « الفنون » وبحالة مرضية ، كما يريد لها أن تكون . فقد مر شهران قبل أن يظهر العدد الأول من المجلد الثالث ، وفيه اعتذار للقراء ، وعلى أية حال فقد صغر حجم المجلة وقلت صفحاتها . وسرعان ما أخذ بعض المشتركين يؤجلون دفع اشتراكاتهم أو يتوقفون عن ذلك جملة . وكانت النتيجة أن ظهر عدد مايو سنة ١٩١٨ وفيه اعتذار آخر للقراء عن احتجاب المجلة لمدة خمسة شهور ، مع بيان أسباب ذلك التأخير .

أصبح نسيب وحيداً وقد تركه شريكه فى المجلة ، و لم يكن أمامه إلا أن يحول « الفنون » إلى جمعية تعاونية مساهمة . صار نعيمة مسئولا عن بيع الأسهم بعشرة دولارات لكل سهم ،وبعد أسبوعين أصبح فى حوزة المجلة ٢٥٠٠ دولار وأصبح نعيمة مسئولا عن الإدارة والمراسلات . وتُرك لنسيب أمر تحرير المجلة وطبعها وتنظيم المقالات والمنشورات .

---

(١) نعيمه : سبعون ج ٢ ص ٥٦ .

بهذا أصبح لدى القراء والمؤازرين أمل جديد . ولكن كالعادة ، لم يكن هذا الأمل ليعمر طويلا . فلسوء الحظ طُلب نعيمة للخدمة العسكرية فى ٢٥ مايو ١٩١٨ وتُرك نسيب وحده ، وبمساعدة جبران وآخرين أمكن إصدار ثلاثة أعداد أخرى ؛ كان آخرها فى أغسطس سنة ١٩١٨ . وعاد نعيمة إلى نيويورك بعد عام واحد ملبياً دعوة جبران للمعاونة فى إعادة إصدار « الفنون » ولكن نعيمة كتب فى ذلك الوقت :

« عدت إلى نيويورك ، ولكن « الفنون » لم تعد للحياة ؛ فقد وجدت أن الخطة التى رسمها نسيب وجبران ، كان من السهل تطبيقها على الورق ، ومن المستحيل تقريباً تطبيقها عملياً » وأوضح السبب قائلا .

« لأن من كانت قلوبهم فى « الفنون » كانت جيوبهم فى عالم الظنون ، وهؤلاء الذين امتلأت جيوبهم بالذهب ، كانت قلوبهم بعيدة عن عالم الأدب » .

لقد كانت نهاية « الفنون » ضربة قاسية لنسيب . وشعر فعلا ، هذه المرة ، أن آماله قد انهارت حوله ، و لم يكن هناك طريق للعون أو الخلاص ، فاستسلم للأمر وأصبح منطوياً على نفسه . وامتلأت كتاباته النثرية والشعرية بروح التذمر والتشاؤم التى يشوبها شعور بالوحدة والحنين إلى وطنه القديم فى حمص . فربما كان الناس هناك أكثر صداقة والبلاد أكثر عطاء .

ولكن ، لماذا كل هذا التشاؤم ؟ فجبران ونعيمة وكتاب آخرون حوله ، كانوا مايزالون متحمسين لكتابة النثر والشعر معاً . ونسيب نفسه لم يفقد حماسه كله . وعبد المسيح حداد مازال يشجع ويعطى بسخاء ، فلم لا ينظرون إلى « السائح » كبديلة لمجلتهم « الفنون » ؟

كانت السائح صحيفة صغيرة ، نصف أسبوعية ، لم تكن معروفة كثيراً بين المهاجرين ، ولكن صاحبها كان شاباً يتحرك فى محيط الحركة الأدبية الجديدة ، ويفهم أهدافها ، ولقد شعر مثل بقية الأعضاء ، بعزيمة قوية

وأصبح واحداً منهم . وبهذا أصبح مكتب عبد المسيح من الآن فصاعداً ، المكان الذى يلتقون فيه حيث يتباحثون فى شتى الأمور ويتبادلون الآراء ويتفكهون أحياناً أو يسخرون ، خاصة إذا كان الحديث عن المال والذين يقتنونه ، وكل هؤلاء الأصدقاء الطيبين ، الذين سيصبحون عما قريب أعضاء فى الرابطة القلمية ، كانوا بعيدين عن الغنى ، بل فقراء غالباً .

لم تكن القراءة والكتابة كافية لكسب العيش ، فكان على نسيب أن يعود إلى العمل فى التجارة مع أبناء عمه ، خاصة أنه فى عام ١٩٢٢ كان قد تزوج نجيبة حداد ، شقيقة عبد المسيح . ولم ينجبا أطفالا .

فى الواقع ، أنه قد أجبر نفسه على تلك المعاناة التى سببت له الكثير من الاكتئاب والكبت المؤلم للعواطف ، مما يصوره فى شعره بوضوح تام .

وعندما لم يطق هذا النوع من العمل ، ولا الناس الذين كان كل همهم البريق المادى ، والذين لم يقدروا أهمية الروح أو الأخلاق ، ترك عمله إلى الأبد ممتلئاً بمشاعر الاحتقار والسخط ، ومن الآن فصاعداً نلحظ فى معظم شعره نغمة الخيبة المرة . وما لبث الموت أن غلف حياته بالحزن بعد فقد شقيقه سابا عام ١٩٢٢ ، وأصبح ممزقاً بين الأسى والألم ، وكتب فى هذه الفترة ثلاثة أو أربعة من قصائده الطويلة .

والتفت نسيب مرة أخرى تجاه العمل الصحفى ، وهو أقرب الأعمال إلى قلبه . أصبح محرراً لصحيفة « مرآة الغرب » التى كان يملكها نجيب دياب ، ثم انتقل إلى «الهدى » التى يمتلكها نعوم مكرزك .

وخلال الحرب العالمية الثانية ، عمل نسيب كمحرر فى القسم العربى من مكتب الاستعلامات الحربية الأمريكية ، وبقى هناك عامين ، واستقال فى نهاية الحرب ، بسبب متاعب القلب والكبد . وكانت أمنيته الأخيرة ، والتى طالما أجلها ، هى أن يجمع أوراقه ويرتب مخطوطاته ، حتى يتمكن من طبع أعماله الشعرية فى ديوان أطلق عليه اسم « الأرواح الحائرة » .

اكتمل العمل وجمعت الأوراق وطبعت النسخ ، ولكن نسيباً لم ير سوى

نسخة أولية غير مجلدة من ديوانه قبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة ويصل إلى «الطريق» الحق الذى كان دائماً يبحث عنه ، إذ توفى فى بروكلين فى الخامس والعشرين من مارس سنة ١٩٤٦ ودفن هناك .

لم تكن الأرواح الحائرة هى العمل الوحيد المطبوع الذى تركه نسيب ؛ فإلى جانب مجموعته الشعرية ، هناك قصتاه القصيرتان « ديك الجن » و « الصمصامة » تصفان فترات وأحداثاً معينة مما قابله خلال حياته فى نيويورك مع ترديد لبعض الذكريات من حياته الأولى فى وطنه الأول . وقد طبع أيضاً قصة مترجمة عن اللغة الروسية أسماها : « أسرار البلاط الروسى » . وسوف ننظر فى هذه الأعمال بالتفصيل إلى جانب بعض أعماله الشعرية الطويلة مثل : « طريق إرم » و « احتضار أبى فراس » .

ربما يكون من المشوق أن نلقى نظرة على ما يذكره ميخائيل نعيمة ، صديق نسيب الحميم ، عن أيام نسيب الأخيرة المليئة بالوحدة والاغتراب .

لقد ترك نعيمة العالم الجديد بعد موت جبران عام ١٩٣١ وعاد إلى مسقط رأسه قرية « بسكنتا » فى لبنان ولكنه لم ينس صديقه البعيد فى نيويورك ، الذى لم ينسه هو الآخر بدوره . لقد استمرت المراسلة بينهما بين وقت وآخر وربما كانت أوقع رسائل نسيب إلى نعيمة هى الرسالة الأخيرة بتاريخ ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٧ ، التى سجلها نعيمة فى الجزء الثالث من سيرته الذاتية « سبعون » ، وقد جاء فى هذه الرسالة :

« ... أدرى أنك كنت رفيقى بالرغم من ابتعادك عنى السنوات الطوال وراء آلاف من الأميال ، وأنك كنت سميرى فى ليالى الأسى ، ومشددى فى شدائد النهار . وأن ما أصابك من امتحان روحك بالمصائب كان محنة لى ، ومصيبة لى . فبينا أنت تبكى أخاك شطر روحك كنت أبكيه كأخى فى سكوتى . وبينا أنت تأسى على أبيك البار كنت آسى عليه كأبى . وبينا أنت تخالط الطبيعة المباركة فى سفح صنين كنت أقاسمك بالخيال روحاتك وغدواتك فكنت تارة فلاحاً معك ، وطوراً حاصداً ، وأحياناً ناطوراً ، وطوراً مكارياً أتغنى بألحان القلب الساذج وراء الدابة ، وتارة ناسكاً فى صومعة .

أجل . لقد كانت حياتك فى أفانينها الجديدة بعد أخاديع المهجر موحية إلى قوة وقدوة فى محيطى الذى تركتنى فيه ياميخائيل غريباً ، أجل ! شقياً غريباً بكل معنى الكلمة بين أهلى ورفاقى » .

ثم يقول فى رسالته بعد ذلك :

« لقد كدت أشيخ — بل شخت يا ميخائيل . وأنا اليوم ألتفت إلى خلف فأرى أنى لم أصنع شيئاً . ولم يبق لقدمى من آثار على رمال الزمن سوى آثار الخيبة والفشل . وفى النفس شىء كثير من الأمل ، وفى صميمها شىء كثير تريد أن تقوله . ولكن أيجدى هذا القول فتيلا ؟ أو لا يمر كصدى ضائع فى واد صخرى موحش ؟

كان زمن كنت أود فيه أن أملأ الفضاء أغانى ساحرة ، والآفاق صوراً مدهشة . فإذا أغانى ليست سوى عىّ وأواة ، وصورى ليست إلا خربشة غلام عابث ، جاهل ... ومجلة الفنون ، لاتزال تراود فكرى . وهى حلمى القتال »[1] .

وكتب نعيمه جواباً على رسالة صديقه فى نوفبر ١٩٣٧ قال فيها :

« عزيزى نسيب ،

أنت فى ضميرى يا نسيب ، وأنا فى ضميرك . فلا شىء يفصلك عنى أو يفصلنى عنك . وأنت إن كتبت لم تزدنى ثقة بمحبتك لى . وإن سكت لم تنقصنى من محبتى لك . إلا أننى أوثر أن أسمع أخبارك منك على أن أتسقطها من سواك . لذلك فرحت برسالتك رغم كل ما فيها من ألم الشكوى وشكوى الألم . وما عجبت لك تتوجع من عالم ليس له رقة إحساسك ، ونشاط خيالك ، وصدق نيتك . بل كنت أعجب لك لو لم تتوجع . وما عسى يكون نصيب مؤمن بين كافرين ، وقانع بين طامعين ، وعابد بين صاخبين ، وحالم بين معربدين ؟ » .

---

(١) نعيمة : سبعون جـ ٢ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

ويستمر نعيمة فى سطوره المواسية الحانية بعد التعبير عن مشاعره المخلصة الرقيقة ، ثم يسأل نسيباً ، مذكراً إياه بأبيات من شعره ، كى يوحى له بالصبر والاحتمال :

« ألست أنت القائل :

فلنسرْ ، فلنسر ، وإما هلكنا
قبل إدراكنا المنى والمواعدْ
فكفانا أنا ابتدأنا ، وأنـــا ،
إن عجزنا ، فقد بدأنا نشاهد ؟[١]

وهناك رسالة أخرى غاية فى الرقة هى التى كتبها نعيمة إلى عبد المسيح فى السابع من أبريل ، بعدما سمع بموت نسيب[٢] فقد حدث تقابل عجيب فى الأفكار فى ذلك الصباح من أبريل سنة ١٩٤٦ عندما تصادف نزول ميخائيل إلى بيروت لزيارة صديق له ولنسيب ، وتحادث الاثنان فى ضرورة طبع ديوان نسيب فى بيروت . وفى مساء اليوم نفسه وصلت برقية من نيويورك تعلن لهم وفاة نسيب .

لقد كانت صدمة كبيرة لنعيمة الذى سرعان ما أخذ يتذكر العديدمن الذكريات العزيزة عن أيامه وسنواته فى نيويورك . فكتب نعياً للصحافة وأذيع النعى من إذاعة بيروت ، وقرأ أحد الشبان المعجبين بشعر نسيب بعض شعره الممتاز .

ومن كلمات نعيمة : « إن شعر نسيب يصور كل الجمال الذى يكمن فى روحه ، ويعكس شخصيته الرقيقة الخجولة ، التى كانت دائماً بعيدة عن التكبر والتظاهر . وكانت دائماً رغبة روحه الوحيدة هى الحنين والشوق إلى الوصول إلى طريق إرم »[٣] .

---

(١) نعيمه : سبعون ج ٣ ص ١٧٦ .
(٢) نعيمه : سبعون ج ٣ ص ١٧٧ .
(٣) نعيمه : فى مجلة « القلم الجديد .